أوراق مبعثرة

من ظلال الهوى (*)

[مهداة إلى الدكتور زكي مبارك]

للأستاذ صلاح الدين المنجد

. . . قلت لها ونحن نمشي على رَوْدِ بين الكروم : « ما ذا تريدين يا نشوى ... وما ذا تودين ؟ أتريدين ثوباً مذهباً يلمع ، أم طيباً ناعشاً يسطع ، أم تودين سماع الأقاصيص الناعمة التي ترقص فيها البطولة ، ويغني في ثناياها الحب ... أم يهفو قلبك إلى أحاديث الغزل ، وتتلمظ شفتاك لخمر القبل ... ؟ »

قالت : « لا ... ولكني أريد فتى يكون لي وحدي ؛ يموج قلبه بحبي ، وتصفقُ روحه لجمالي ... ولا يرى في الوجود سواي ما نفعُ الثوبِ اللامع إذا كان الحبيب الذي يراه لا يسكر لمرآه . . .

وما غناء الأقاصيص والأحاديث إذا كان القلب الذي ينظمها لا يتدفق بالحنين ولا يغني للحياة ...

نعم متى جاء الحبيبُ ... جاء كل شيء ... !

ثم انعطفت تقطف أوراق كرمة نسي ... فقلت لها :

— ألستُ فتاك الذي تودين ... ؟

قالت : لا ...

قلت : بلى ... أنت تحبينني يا نشوى ... اذكري الدمعَ الذي ذرفته من أجلي ، إذ مستني الحمى فأصبحت ساهما واجماً ... واذكري الفرحَ الذي يطل من نظراتك ، ويلهبُ أعطافكِ وقسماتك إذا مالقيتني . لا تنكري يا نشوى ... أرأيت تهيامي بكِ وتحناني إليك فجئت تدلين وتبتسمين ... ؟ أرودي في مشيتك ... وتعالي إلى أحضان هذه الأعشاب ، أسمعك النشيد الذي نظمته أصيل الأمس .

فقفزت فوق كرمة متراخية ، وارتمت بين أوراقها ، وجلست أنا أمامها ، وأنشدتها قصيدتي التي أولها :

يا سادراً هيمانَ يبكي ولا يصحـــو

وكان الدمُ الدفّاق في خديها ، والفرحُ الراقص على وجنتيها ، يكسبانها وضاءة ونضارة ، فاقتربتْ مني ، واستراح رأسُها على صدري ، وسرحت بصرها في جنبات السهل الساجي تحت أقدامنا فخنوت عليها ، وضممتها إلى صدري ، كما تضم الأم وليدها ، وراحت شفتاي تسكبان على سحرها حنيناً لازعاً وحباً ناعماً ، وشعوراً مُترعاً بالحماسة واللذة والفرح

ما أروعَ لياليك أيها الحب !

لقد كانت ليلة نديانة بالقبُل نشوانة بالغزل ، وكان يخيل إلينا أن الحبَّ الذي جمع قلبينا بالمودّة ، ورُوحينا بالوئام ، يجوبُ السفوح ، ويرف في أشعة القمر الصبوح ، ويخلع على الدنيا السناء والبهاء . وكان القمرُ كالأمير الفُرانق الجميل ، حفّت به النجومُ البيضُ لترقصَ أمامه عرايا بدلال وفتور ... وكان يريق أشعته على قمم الجبل فتنير تلك السنديانات الهاربة نحو السماء ، ثم تزحف نحونا بهدوء لتسمعَ أناشيدَ الهوى وترى جنون الصبا ؛ حتى غمرتنا ، وطفتْ على المغاني والرُّبى فحسبنا أننا في بحيرة من الأنوار السُّمر والفاترة ، وأن الكرمات زوارق سكرى ، وأننا غريقان في اللجج ، تائهان فوقَ الثبج ، نتلمسُ الشاطئَ فلا نجده ، ونتقرّبُ من الضفّة فلا نلقاها ... !

وسمعنا الشلاّلَ يغني لنا ، وانتشر العبيرُ حولنا ، وضحك السهلُ والجبلُ لمرآنا ، ورفتْ الصخورُ رؤوسَها لترانا ... وسكرنا سكرتين : سكرَ هوى وسكرَ جمال ...

بوركتَ أيها الجبلُ القائمُ كالفارسِ الأسمرِ الجميل . . . !

لقد قال لي بالأمس وأنا أرنو إليه في شحوب الأصيل : « لقد حفظت ذكرى الحبيبة بين صخوري ، وجاء الربيع يرتع فوق حدوري ، وتمايلت الأعاشيب على صدري ، وتزاحمت الأزاهير لتطرز سفوحي ، وغنت الرعاة باسم فتاتك في متوع الأصابيح وسجوّ الأماسي

لقد حفظت ذكراها ... لأن تلك الدموع التي ذرفتها أصبحت منبت الأزاهير ، ولأن تلك القبلات التي غنت برنينها النسمات أضحت ينبوعاً للأغاريد ، ولأن حنين الشفاه ونجوى القلوب عادت أناشيد الرعاة ! »

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(*) انظر العدد ٣٢٢ من الرسالة